

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ لَهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُكْفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فبين أيدينا أجل كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة. وكلمة السيراء جاء في الحديث: "أهدى له أكيدر دومة حلة سیراء". السيراء بكسر السين وفتح الياء والمد: نوع من البرود يخالطه حرير، كالسيور فهو فعلاء من السير: القد. هكذا يزوي على الصفة. وقال بعض المتأخرين: إنها هو حلة سیراء على الإضافة، واحتج بأن سيبويه قال: لم يأت فعلاء صفة، ولكن اسما، وشرح السيراء بالحرير الضافي، ومعناه: حلة حرير. ومنه: "أنه أعطى عليا بزدا سیراء وقال: اجعله حرا"، ومنه حديث عمر: "أنه رأى حلة سیراء ثباع فقال: لو اشتريتها". ومنه حديثه الآخر: "إن أحد عماله وقد إليه وعليه حلة مسيرة". أي: فيها خطوط من إبريسم كالسيور، ويروى عن علي حديث مثله. وقال ابن الأثير: هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور.

وألف ابن الأبار كتابه هذا أثناء عمله في خدمة السلطان أبي زكريا الحفصي صاحب تونس، وهو في فاتحته يتحدث عن أبي زكريا وولي عهده: أبي يحيى المتوفى في حياة أبيه سنة ٦٤٦ هـ وفي الكتاب إشارة إلى أنه كان لا يزال مشغولاً بتأليف هذا الكتاب في تلك السنة،

٦..... الحُلَّةُ السَّيراءُ فِي أشعارِ الأُمراءِ

وقد صنفه تمجيداً لشاعرية السلطان أبي زكريا وولي عهده، وتدليلاً على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء، وترجم فيه لمن عرف بقرض الشعر من رجالات المغرب والأندلس، ورتبه على القرون، مبتدئاً بالقرن الأول الهجري، وحتى منتصف القرن السابع.

ولعله أتمه قبل وفاة أبي زكريا، ولكن العجلة التي تبدو في الباب الأخير من الكتاب تدل أنه أتمه بعد ذلك بمدة قصيرة، وفي الغالب أيام إقامته الثانية في (بجاية)^(١)، فنجى من الدمار الذي ناله ونال كتبه بسبب غضب المستنصر ابن أبي زكريا عليه بعد وشاية الوزير الغساني بما عثر عليه في كتاب (التاريخ) لابن الأبار، من الإساءة للمستنصر، فأمر بقتله قعصاً بالرماح، وأن يحرق بعد قتله هو وكتبه ودواوينه.

(١) بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين في حدود سنة ٧٥٤ هـ بينها وبين جزيرة بني مزغناي أربعة أيام، كانت قديماً ميناء فقط، ثم بنيت المدينة، وهي في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال، كانت قاعدة ملك بني حماد، وتسمى الناصرية أيضاً باسم بانيتها [معجم البلدان: ١/٣٧٩].

مقدمة في الشعر.

الشعر وأدواته:

الشعر كلام منظوم، بائن عن المشور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خصص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجتهد الأسعاع، وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتاج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق به، حتى تعتبر معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه. وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه. فمن تعصت عليه أداة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة.

فمنها: التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفتون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم، ومناقبتهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه، في كل فن قالته العرب فيه؛ وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها، والسنن المستدلة منها، وتعريضها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالته وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها وحسن مبانيتها، وحلاوة مقاطعها، وإيقاع كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة. واجتناب ما يشينه من مفساسف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لا يكون متفاوتاً مرفوعاً، بل يكون كالسيبكية المفرغة، والوشي المنمنم والعقد المنظم، واللباس الرائق، فتسابق معانيه ألفاظه، فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها، فيكون ما قبلها مسوقاً إليها، ولا تكون مسوقة إليه، فتتلق في مواضعها، ولا

توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ متقادة لما تراد له، غير مستكرهة، ولا متعبة، لطيفة الموالج، سهلة المخارج.

وجامع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميز الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها.

صناعة الشعر:

إذا أزداد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبتته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه؛ بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله. فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعاً لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته، يستقصي انتقاده، ويرم ما وهى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو تقض بعضه، وطلب لمعناه قافية تشاكله، ويكون كالنسيج الحاذق الذي يفوت وشبهه بأحسن التفويت ويسديه وينيره ولا يلهل شيئاً منه فيشينه، وكالتقاش الرقيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكنائز الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الراقق، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها. وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها، وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة، ويقف على مراتب القول، والوصف في فن بعد فن، ويتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته وحكاياته، ويحضر لُبّه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل

المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامية، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه. ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم، وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولاً كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماعة، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف القيافي والنوق، ومن وصف الرعود والبروق إلى وصف الرياض والرواد ومن وصف الظلمان والأعيار إلى وصف الخيل والأسلحة، ومن وصف المغاوز والقيافي إلى وصف الطرد والصيد، ومن وصف الليل والنجوم إلى وصف الموارد والمياه والهواجر والآل، والحراي والجنادب. ومن الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف، ومن الاستكانة والخضوع إلى الاستعتاب والاعتذار، ومن الإباء والاعتياض إلى الإجابة والسمع، بلطف مخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلاً به وممزجاً معه، فإذا استقصى المحتى وأحاطه بالمراد الذي إليه يسوق القول بأيسر وصف وأخف لفظ لم يحتاج إلى تطويله وتكريره.

والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه، متشابه الجملة، متفاوت التفصيل، مختلف باختلاف الناس في صورهم، وأصواتهم، وعقولهم، وحظوظهم وشمائلهم، وأخلاقهم، فهم متفاوتون في هذه المعاني، وكذلك الأشعار هي متفاوتة في الحسن على تساويها في الجنس؛ ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم، واختيارهم لما يستحسنونه منها. ولكل اختيار يؤثره، وهوى يتبعه، وبغية لا يستبدل بها ولا يؤثر سواها.

ومن الأشعار أشعار محكمة متقنة الألفاظ حكيمة المعاني، عجيبة التأليف إذا نقضت وجعلت نثرًا لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها.

ومنها أشعار مبوهة، مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحاً، فإذا حصت وانتقدت بهرجت معانيها، وزيفت ألفاظها، ومجت حلاوتها، ولم يصلح نقضها لبناء

١٠..... الحَلَّةُ السَّيْرَاءُ فِي أَشْعَارِ الْأَمْرَاءِ

يستأنف منه، فبعضها كالقصور المشيدة، والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور، وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزعها الرياح، وتوهيها الأمطار، ويسرع إليها البلى، ويخشى عليها التقوض.

المعاني والألغاز:

وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسنة التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض.

وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه.

وكم من صارم غضب قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزه ثم لم يضرب به، وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقريئة لها بعيدة منها، فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها، وكم من زائف وبهزج قد نفقا على نقادهما، ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهواً، وكم من زير للمعاني في حشو الأشعار لا يحسن أن يطلبها غير العلماء بها، والصياقلة للسيوف المطبوعة منها.

وكم من حكمة غريبة قد أزدريت لثرثثة كسوتها، ولو جللت في غير لباسها ذلك لكثير المشيرون إليها، وكم من سقيم من الشعر قد يشس طبيبه من برثه، عولج سقمه فعاودته سلامته، وكم من صحيح جني عليه فأرداه حينه.

ملاءمة معاني الشعر لمبانيه:

وليست تخلو الأشعار من أن يقتص فيها أشياء هي قائمة في النفوس والعقول، فيحسن العبارة عنها وإظهار ما يكمن في الضمائر منها فيتهج السامع لما يريد عليه مما قد عرفه طبعه وقبله فهمه، فيشار بذلك ما كان دفيناً ويبرز به ما كان مكنوناً، فينكشف للفهم غطاؤه، فيتمكن من وجدانه بعد العناء في نشدانه، أو تودع حكمة تألفها النفوس، وترتاح لصدق القول بها وما أتت به التجارب منها، أو تضمن صفات صادقة وتشبيهات موافقة، وأمثالاً مطابقة تصاب حقائقها، ويلطف في تقريب البعيد منها، فيؤنس الناظر الوحشي حتى يعود مألوفاً

محبوباً، ويعد المألوف المأثوم به حتى يصير وحشياً غريباً، فإن السمع إذا ورد عليه ما قد مله من المعاني المكررة والصفات المشهورة التي قد كثر ورودها عليه مجه وثقل عليه رعيه، فإذا لطف الشاعر لشوب ذلك بما يلبسه عليه، فقرب منه بعيداً أو بعد منه قريباً، أو جلل لطفياً، أو لطف جليلاً أصغى إليه ودعاه واستحسنه السامع واجتبه.

وهذا تطريق إلى تناول المعاني واستعارتها، والتلطف في استعمالها على اختلاف جهاتها التي تتناول منها، أو تضمن أشياء يوجبها أحوال الزمان على اختلافه وحوادثه على تصرفها، فيكون فيها غرائب مستحسنة وعجائب بديعة مستطرفة، من صفات وحكايات ومحاطبات في كل فن توجه الحال التي ينشأ قول الشعر من أجلها، فتدفع به العظام وتسل به السخائم^(١)، وتخلب به العقول، وتسحر به الألباب لما يشتمل عليه من دقيق اللفظ ولطيف المعنى. وإذا قد قالت الحكماء: إن للكلام الواحد جسداً وروحاً. فجسده النطق وروحه معناه، فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متمنة، لطيفة مقبولة حسنة، مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه، مستدعية لعشق التأمل في محاسنه، والمتفرس في بدائعه، فيحسه جسماً ويحققه روحاً، أي: يتيقنه لفظاً، ويبدعه معنى، ويجتنب إخراجه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحاً ويبرزه مسخاً، بل يسوي أعضائه وزناً، ويعدل أجزاءه تأليفاً، ويمسح صورته إصابه، ويكثر رونقه اختصاراً، ويكرم عنصر، صدقاً، ويفيده القبول رقة ويحصنه جزالة، ويدنيه سلاسة وينأى به إعجازاً، ويعلم أنه نتيجة عقله، وثمرة لبه وصورة علمه، والحاكم عليه أوله.

(١) السَخَائِمُ: أي الحُقُودُ، وهي جمع (سَخِيمَةٌ)، وفي حديث: "من سَلَ سَخِيمَتُهُ على طريق من طُرُقِ

لمسلمين لعنه الله". يعني: الغائط [لسان العرب: ١٢ / ٢٨٢-٢٨٣].

أقسام الشعر

قسم ابن قتيبة الدينوري في كتابه "الشعر والشعراء" الشعر إلى أربعة أقسام:

١- ضربٌ منه حسن لفظه وجاد معناه: كقول القائل في بعض بني أمية: [البسيط]

فِي كَفِّهِ خَيْرُ رَانَ رِيحُهُ عَبَقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَاعٍ فِي عَزِينِهِ شَمُّ
يَغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَةٍ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا جِينَ يَبْتَسِمُ
لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه.

وكقول أوس بن حجر: [المنسرح]

أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذِرِينَ قَدْ وَقَعَا
لم يتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا.
وكقول أبي ذؤيب: [الكامل]

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدَ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
حدثني الرياشي عن الأصمعي، قال: هذا أبدع بيت قالته العرب.

وكقول حميد بن ثور: [الطويل]

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
ولم يقل في الكبر شيء أحسن منه.

وكقول النابغة: [الطويل]

كَلَيْسِي بِسَمِّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَبَلِيلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
لم يتدئ أحدٌ من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب.

ومثل هذا في الشعر كثير، ليس للإطالة به في هذا الموضع وجه.

٢- وضربٌ منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى،

كقول القائل: [الطويل]

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَزْكَانِ مَنْ هُوَ مَا سِخُ

وَسُدَّتْ عَلَى حُذْبِ الْمَهَارِي رِحَالَنَا وَلَا يُنْتَظَرُ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخرج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من
المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا
يتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح.

وهذا الصنف في الشعر كثير.

ونحوه قول المعلوط: [الكامل]

إِنَّ الَّذِينَ عَدَوْا بُلْبُكَ غَادُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غِيْظُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيْتِ مِنَ الْهُوَى وَلَقِينَا

ونحوه قول جرير: [الكامل]

يَا أُخْتِ نَاجِيَةَ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ قَبْلَ الرَّجِيلِ وَقَبْلَ لَوْمِ الْعُدْلِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمَ الرَّجِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ

وقوله: [البيط]

بَانَ الْخَلِيْطُ وَلَوْ طُوغْتُ مَا بَاتَا وَقَطَعُوا مِنْ جِبَالِ الْوَضْلِ أَقْرَانَا
إِنَّ الْعِيُونَ الَّتِي فِي ظَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْتَنَّا نَمَّ لَمْ يُجْمِعِينَ قَتَلَاتَنَا
يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهِنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَزْكَانَا

٣- وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لييد بن ربيعة: [الكامل]

مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمَ كَنَفْسِهِ وَالْمَرْءُ يُضْلِحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والروث.

وكقول النابغة للنعمان: [الطويل]

خَطَا طَيْفٌ حُجْنٌ فِي جِبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدِي إِلَيْكَ نَوَازِعُ

١٤ الحلة السيرة في أشعار الأمراء

قال أبو محمد: رأيت علماءنا يستجدون معناه، ولست أرى ألفاظه جيداً ولا مبيّنة لمعناه، لأنه أراد: أنت في قدرتك على كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف، وعلى أني أيضاً لست أرى المعنى جيداً.

وكقول الفرزدق: [الكامل]

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ تَهَارُ

٤ - وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى في امرأة:

وَفُوهَا كَأَقْسَاجِيٍّ عَدَاهُ دَائِمٌ هَطْطِئِلِ

كَمَا شَيْبَ بِرَاحِ بَا رِدِمِنَ عَسَلِ النَّخْلِ

وكقول: [المنسرح]

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنْ مُرْتَحَلًّا وَإِنَّ فِي السَّفْرِ مَا مَضَى مَهَلًا

اسْتَأْتَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَيَأَلُ . حَمْدِ وَوَلَّى الْمَلَأَمَةَ الرَّجُلَا

وَالْأَرْضُ مَهَالَةٌ لِمَا حَمَلَ اللَّهُ هُ وَوَمَا إِنْ تَرُدُّ مَا فَعَلَا

يَوْمًا تَرَاهَا كَشِبِهِ أُرْدِيَةِ الْ عَضْبِ وَيَوْمًا أُدِيمُهَا نَفَلَا

وهذا الشعر منحول، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله:

يَا خَيْرَ مَنْ يَزْكَبُ الْمُطَيَّ وَلَا يَشْرَبُ كَأَسَا بِكَفِّ مَنْ بَخَلَا

يريد أن كل شارب يشرب بكفه، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل، وهو معنى

لطيف.

وكقول الخليل بن أحمد العروضي: [المجتث]

إِنَّ الْخَلْقَ يَطَّ تَنَصَّدَعُ فَطَرِبُ بِدَائِكَ أَوْ قَعُ

لَوْ لَا جَوَارِحِ سَانَ حُورُ الْمَدَامِعِ أَرْزَعُ

أُمُّ الْبَنِيْنَ وَأَسْمَا وَالرَّبَابُ وَيَزُورُ

لَقُلْتُ لِلرَّاحِلِ إِزْحَلْ إِذَا بَدَأَ لَكَ أَوْ دَعُ

وهذا الشعر بين التكلف ردىء الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيء جاء عن إسحاق وسهولة، كشعر الأصمعي، وشعر ابن المقفع وشعر الخليل، خلا خلف الأحر، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً. ولو لم يكن في هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه! فقد كان جرراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته التي أولها: [الكامل]

بَانَ الحَلِيْطُ بِرَامَتَيْنِ قَوْدَعُسُوا أَوْ كَلَّمَا جَدُّوَالْيَسِيْنَ تَجَزَّعُ
كَيْفَ العَرَءَاءِ وَلَمْ أَجِدْ مُذْ بِنْتُمْ قَلْبًا يَبْقَرُّ وَلَا شَرَابًا يَنْقَعُ

وهو يتحفز ويزحف من حسن الشعر، حتى إذا بلغ إلى قوله:

وَتَقُولُ بَوَزَعٌ قَدْ دَبَيْتَ عَلَيَّ العَصَا هَلَا هَزَيْتَ بِغَيْرِنَا يَا بَوَزَعُ

قال له: أفسدت شعرك بهذا الاسم وفترو.

قال أبو محمد: وقد يقدر في الحسن قبح اسمه، كما ينفع القبيح حسن اسمه، ويزيد في مهانة الرجل فظاعة اسمه، وترد عدالة الرجل بكنيته ولقبه. ولذلك قيل: (اشفعوا بالكنى، فإنها شبيهة).

وتقدم رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: ادع أبا الكويفر ليشهد، فتقدم شيخ فرده شريح ولم يسأل عنه، وقال: (لو كنت عدلاً لم ترض بها)، ورد آخر يلقب أبا الذبان ولم يسأل عنه. وسأل عمر رجلاً أراد أن يستعين به على أمير عن اسمه واسم أبيه، فقال: ظالم بن سراق، فقال: (تظلم أنت ويسرق أبوك). ولم يستعن به.

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يدعو رجلاً: بأبا العمرين، فقال: (لو كان له عقل كفاه أحدهما!) ومن هذا الضرب قول الأعشى: [البيسط]

وَقَدْ عَسَدَوْتُ إِلَى الحَاتُوْتِ يَتَّبِعُنِي شَاوٍ مِثْلُ شَلُوْلٍ شُلْشَبْلٍ شَوِلٍ

وهذه الألفاظ الأربعة في معنى واحد، وكان قد يستغنى بأحدها عن جميعها، وماذا يزيد هذا البيت أن كان للأعشى أو ينقص؟ وقول أبي الأسد، وهو من المتأخرين الأخفاء: [الطويل]

وَلَايْمَةَ لَا مَتَكَ يَا قَيْضَ فِي التَّدْيِفِ قُلْتَ لَهَا لَنْ يَقْدَحَ اللُّوْمُ فِي البَحْرِ

أَرَادَتْ لِتُنِّيَ الْفَيْضُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ مَوَاقِعُ مَاءِ الْمُزْنِ فِي الْبَلَدِ الْفَقْرِ
 لتننى الفيض عن عادة الندى ومن ذا الذي يننى السحاب عن القطر
 مَوَاقِعُ جَوْدِ الْفَيْضِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ مَوَاقِعُ مَاءِ الْمُزْنِ فِي الْبَلَدِ الْفَقْرِ
 كَأَنَّ وَفُودَ الْفَيْضِ حِينَ تَحْمَلُوا إِلَى الْفَيْضِ وَأَفْوَاغِنْدَةً لَيْلَةَ الْقَدْرِ
 وهو القائل: [المنسرح]

لَيْتَكَ أَذْنَتِي بِوَاحِدَةٍ تَكُونُ لِي مِنْكَ مَائِرَ الْأَبْدِ
 تَحْلِفُ الْأَتْبَرَنِي أَبَدًا فَإِنَّ فِيهَا بَرْدًا عَلَى كَبِدِي
 إِنْ كَانَ رِزْقِي إِلَيْكَ فَارْزُقْ فِي نَاطِرِي حَيَّةً عَلَى رَصْدِ
 ومن هذا الضرب أيضاً قول المرقش: [السريع]

هَلْ بِالذِّيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمَ لَوْ أَنَّ حَيَّا نَاطِقًا كَلِمَ
 يَأْبَى الشَّبَابُ الْأَقْوَرِينَ وَلَا تَغِيْطُ أَخَاكَ أَنْ يُقَالَ حَكَمَ

والعجب عندي من الأصمعي، إذ أدخله في متخيره، وهو شعراً ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروي، ولا متخير اللفظ، ولا لطيف المعنى ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله:
 النَّشْرُ مِنْكَ وَالْوُجُوهُ دَنَا زَيْرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكْفِ عَنَّمْ
 ويستجاد منه قوله:

لَيْسَ عَلَى طُولِ الْحَيَاةِ نَدَمٌ وَمَنْ وَرَاءَ الْمَرْءِ مَا يُعْلَمُ
 وكان الناس يستجيدون للأعشى قوله: [المتقارب]

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَسَدَّوَيْتُ مِنْهَا بِهَا
 حتى قال أبو نواس: [البسيط]

دَعَّ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فسلخه وزاد فيه معنى آخر، اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه، فللأعشى فضل سبق إليه، ولأبي نواس فضل الزيادة فيه.

وقال الرشيد للمفضل الضبي: اذكر لي بيتاً جيد المعنى يحتاج إلى مقارعة الفكر في استخراج خبيثه ثم دعني وإياه، فقال له المفضل: أتعرف بيتاً أوله أعرابي في شملته، هاب من نومته، كأنها صدر عن ركب جرى في أجفانهم الوسن فركد، يستفزهم بعنجهية البدو، وتعجرف الشدو، وآخره مدني رقيق، قد غذى بماء العقيق؟ قال: لا أعرفه، قال: هو بيت جميل بن معمر: [الطويل]

أَلَا أَيُّهَا الرَّكْبُ النَّيْسَامُ أَلَا هُبُوا

ثم أدرسته رقة المشوق، فقال:

أسائلكم: هل يقتل الرجل الحب؟

قال: صدقت، فهل تعرف أنت الآن بيتاً أوله أكنم بن صيفي في أصالة الرأي ونبيل العظة، وآخره أبقراط في معرفته بالداء والدواء؟ قال المفضل: قد هولت علي، فليت شعري بأي مهير تفترع عروس هذا الخدر؟

دَخَ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ

قال: يا بصغائك وإنصافك، وهو قول الحسن بن هاني:

رَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

قال أبو محمد: وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكي وشكا، وخاطب الربيع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمدة في الحلول والظغن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلال، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لأنط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارياً فيه بسهم، حلالٍ أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا

النصب والسهر وسرى الليل وحل المهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسباح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل.

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأً إلى المزيد.

فقد كان بعض الرجاز أتى نصر بن سيارٍ والى خراسان لبنى أمية، فمدحه بقصيدة، تشبيهاً مائة بيت، ومديحها عشرة أبيات، فقال نصرٌ: والله ما بقيت كلمةً عذبةً ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيحك، فإن أردت مديحي فاقصد في التسيب، فاتاه فأنشده:

هَلْ تَعْرِفُ السِّدَارَ لِأَمِّ الْعَمْرِ دَغْ ذَا وَحَبْرَ مَذْحَجَةٍ فِي نَصْرِ

فقال نصر: لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين.

وقيل لعقيل بن علفة: ما لك لا تطيل الهجاء؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق.

وقيل لأبي المهوش الأسدي: لم لا تطيل الهجاء؟ فقال: لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً.

وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكى عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر، والرسم العافي. أو يوحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأوابن الطوامي.

أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والأس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع

منابت الشيح والحنوة والعرارة.

قال خلف الأحمر: قال لي شيخٌ من أهل الكوفة، أما عجبت من الشاعر قال:

أَبْتَتَ قَيْضُومًا وَجَجَجَانًا

فاحتمل له، وقلت أنا:

أَبْتَتَ إِجْجَاصًا وَتَمَّاحًا

فلم يحتمل لي؟ وليس له أن يقيس على اشتقاقهم، فيطلق ما لم يطلقوا.

قال الخليل بن أحمد: أنشدني رجلٌ: [الرجز].

تَرَا فَعِ الْعِزُّ بِنَا فَازُ فَنَعَمَا

فقلت. ليس هذا شيئاً، فقال: كيف جاز للعجاج أن يقول: [الرجز].

تَقَاعَسَ الْعِزُّ بِنَا فَاقْعَنَسَا

ولا يجوز لي!؟ ومن الشعراء المتكلف والمطبوع: فالتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة، وكان الأصمعي يقول: زهيرٌ والحطيئة وأشابههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك. وكان زهيرٌ يسمى كبر قصائده: (الحوليات).

وقال سويد بن كراع، يذكر تنقيحه شعره: [الطويل]

أَيُّتُ بِأَبْوَابِ الْقَوَافِي كَأَتَا أَصَادِي بِهَا يَسْرِباً مِنَ الْوَحْشِ نَزَعَا
أَكَا لَيْتُهَا حَتَّى أَعْرَسَ بَعْدَ مَا يَكُونُ سُحَيْرًا أَوْ بُعِيدًا فَأَهْجَعَا
إِذَا خَفْتُ أَنْ تُرَوِّى عَلَيَّ رَدَّتْهَا وَرَاءَ التَّرَاقِي خَشِيَّةٌ أَنْ تَطْلَعَا
وَجَشَمَنِي خَوْفُ ابْنِ عَمَّانَ رَدَّهَا فَتَقَفَّتْهَا حَوْلًا جَرِيدًا وَمَرْبَعَا
وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زِيَادَةٌ فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أَطِيعَ وَأَسْمَعَا

وقال عدي بن الرقاع: [الكامل]

وَقَصِيدَةٌ قَدْ بَتَ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقْسَوْمَ مَيْلِهَا وَيَسْتَادَهَا
نَظَرَ الْمُتَّقِفِ فِي كُعُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقْسِمَ بِثِقَافِهِ مُنَادَهَا

وللشعر دواعٍ تحث البطيء وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب.

وقيل للحطيئة: أي الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا

طمع.

٢٠..... الحَلَّةُ السَّيْرَاءُ فِي أَشْعَارِ الْأَمْرَاءِ

وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: مدائحك لِحَمْدِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ زِيَادٍ، يَعْنِي: كَاتِبِ الْبِرَامِكَةِ، أَشْعَرُ مِنْ مَرَاتِيكَ فِيهِ وَأَجُودُ؟ فَقَالَ: كُنَّا يَوْمَئِذٍ نَعْمَلُ عَلَى الرَّجَاءِ، وَنَحْنُ الْيَوْمَ نَعْمَلُ عَلَى الْوَفَاءِ، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ.

وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآجرة.

وقيل لكثير: يَا أَبَا صَخْرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا عَسَرَ عَلَيْكَ قَوْلُ الشَّعْرَى؟ قَالَ: أَطُوفُ فِي الرَّبَاعِ الْمَخْلِيَةِ وَالرِّيَاضِ الْمَعْشَبَةِ، فَيَسْهَلُ عَلَيَّ أَرْصَنَهُ، وَيَسْرِعُ إِلَيَّ أَحْسَنَهُ. وَيَقَالُ أَيْضًا: إِنَّهُ لَمْ يَسْتَدْعِ شَارِدَ الشَّعْرَى بِمِثْلِ الْمَاءِ الْجَارِي وَالشَّرْفِ الْعَالِي وَالْمَكَانِ الْخَضِرِ الْخَالِي.

وقال الأحوص: [الطويل]

وَأَشْرَفْتُ فِي نَشْرِ مِنَ الْأَرْضِ يَبَافِعِ وَقَدْ تَشَعَّفُ الْأَيْفَاعُ مَنْ كَانَ مُقْصِدًا
وَإِذَا شَعَفْتَهُ الْأَيْفَاعُ مَرْتَهُ وَاسْتَدْرَتَهُ.

وقال عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لَأَرْطَاةَ بْنِ سَهْيَةَ: هَلْ تَقُولُ الْآنَ شَعْرًا؟ فَقَالَ: كَيْفَ أَقُولُ أَنَا لِلشَّنْفَرِيِّ مَا أَشْرَفَ وَلَا أَطْرَبَ وَلَا أَغْضَبَ، وَإِنِّي يَكُونُ الشَّعْرَى بَوَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ.

وقيل للشنفرى حين أَسْرَ: أَنشُدْ، فَقَالَ: الْإِنْشَادُ عَلَى حِينِ الْمَسْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: [الطويل]

فَلَا تَذْفُنُونِي إِنْ دَفَنِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ خَاصِمِي أَمْ عَامِرِ
إِذَا حَمَلُوا رَأْيِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي وَغَوِيذَ عِنْدَ الْمُتَلَقِّي ثُمَّ سَائِرِي
هُنَالِكَ لَا أَزْجُو حَيَاةَ تُسْرِنِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ

وللشعر تاراتٌ يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها روضه. وكذلك الكلام المشور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سبب، إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم.

وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميم عند تميم، وربما أتت علي ساعةً ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت.

وللشعر أوقاتٌ يسرع فيها آتيه، ويسمح فيها أبيه. منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحيس والمسير.

ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب.

وقالوا في شعر النابغة الجعدي: (خمارٌ بوافٍ ومطرفٌ بالآف).

ولا أرى غير الجعدي في هذا الحكم إلا كالجعدي، ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل وترك طريف التقليد، يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره.

ولله در القائل: أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه.

وقال البعتي: أنشد مزوان بن أبي حفصة لزهير فقال: زهير أشعر الناس، ثم أنشد للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشد لامرئ القيس فكانها سمع به غناءً على شراب، فقال: امرؤ القيس والله أشعر الناس.

وكل علم محتاجٌ إلى السماع. وأحوجه إلى ذلك علم الدين، ثم الشعر، لما فيه من الألفاظ الغريبة، واللغات المختلفة، والكلام الوحشي، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه. فإنك لا تفصل في شعر الهذليين إذا أنت لم تسمعه بين شابة وساية وهما موضعان ولا تثق بمعرفتك في حزم نبايع، وعروان الكراث، وشسى عبقر، وأسد حلية، وأسد ترحج، ودفاق، وتضارع، وأشباة هذا لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة، كما يلحق مشتق الغريب.

وقرىء يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب:

بِأَسْفَلِ ذَاتِ الدَّيْرِ أَفْرَدَ جَحْشُهَا

فقال أعرابي حضر المجلس للقارىء: ضل ضلالك أيها القارىء! إنما هي ذات الدبر

وهي ثنية عندنا، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد.

ومن ذا من الناس يأخذ من دفتر شعر المعذل بن عبد الله في وصف الفرس:

مِنَ السُّحِّ جَوَالًا كَانَ عُلَامَهُ يُصَرِّفُ سَيْدًا فِي الْعَتَانِ عَمَّرَنَا

إلا قرأه سيداً يذهب إلى الذئب، والشعراء قد تشبه الفرس بالذئب وليست الرواية المسموعة عنهم إلا سبداً، قال أبو عبيدة: المصحفون لهذا الحرف كثير، يروونه سبداً أي ذئباً، وإنما هو سببُ البلاء معجمة بواحدة، يقال: فلانُ سببٌ أسبادٍ. أي: داهية دواه.

وكذلك قول الآخر:

رَوُّجُكَ يَا ذَاتَ الشَّيَا الْعُرِّ السَّرِّيَّاتِ وَالْحَيِّينِ الْحُرِّ

يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر الربلات وما الربلات من الشايا والحيين؟ وهي أصول الفخذين، يقال: رجل أربل إذا كان عظيم الربلتين، أي عظيم الفخذين وإنما هي الربلات بالتاء يقال: ثغر رتل إذا كان مفلجاً.

وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يختار ويحفظ على

أسباب: منها الإصابة في التشبيه، كقول القائل في وصف القمر:

بَبْدَانٌ بِنَا وَإِنُّ اللَّيَالِي كَأَنَّهُ حُسَامٌ جَلَّتْ عَنَّهُ الْقِيُونَ صَعِيلٌ

فَمَا زِلْتُ أَفْنَى كُلِّ يَوْمٍ سَبَابُهُ إِلَى أَنْ أَتَيْتَكَ الْعَيْسُ وَهُوَ صَعِيلٌ

وكقول الآخر في مغن:

كَأَنَّ أَبَا الشَّمُوسِ إِذَا تَغَنَّى يُحَاكِي عَاطِطًا فِي عَيْنِ شَمْسٍ

يَبْدُوكَ بِلَخِيهِ طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّ بِلَخِيهِ هَرَبَانَ ضُرْسٍ

وقد يحفظ ويختار على خفة الروي، كقول الشاعر:

يَا تَمَلِّكُ يَا تَمَلِّي صِلَانِي وَدَرِي عَانِي

دَرِينِي وَسِلَاحِي نُوْمٌ مُنْدَى الْكَفِّ بِالْقَزْلِ

وَنَسْبِي وَقَفَاهَا كَعَجْ رَاقِبِي قَطَا طَخَلِي

وَمَنْسَى نَظْرَةَ بَعْدِي وَمَنْسَى نَظْرَةَ قَبْلِي

وَتَوَاتَيْ سَائِ جَدِيدَانِ وَأَزْرَيْ شُرَكَ النَّعْلِ
وَأَمَّا مَنْتُ يَا تَمْلِي فَكُنْ فِي حُسْرَةٍ مِنِّي

وهذا الشعر مما اختاره الأصمعي بخفة رويه.

وكقول الآخر:

وَلَوْ أُرْسِلْتُ مِنْ حُبِّكَ مَبْهُوتاً وَمِنَ الصَّيْنِ
لَوَاقِيْتُكَ قَبْلَ الصُّبِّ سَحِ أَوْ حِينِ تُصَلِّينِ

وكان يتمثل بهذا كثيراً وقال: المبهوت من الطير الذي يرسل من بعد قبل أن يدرج.

وقد يختار ويحفظ لأن قائله لم يقل غيره، أو لأن شعره قليل عزيز، كقول عبد الله بن أبي

بن سلول المنافق: [الطويل]

مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلَاكَ خَصَمَكَ لَا تَزَلْ تَذِلُّ وَيَعْلُوكَ الَّذِينَ تُصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بَغِيرِ جَنَاحِهِ وَإِنْ قُصَّ يَوْمًا رِيشُهُ فَهَوَّ وَاقِعُ

وقد يختار ويحفظ لأنه غريب في معناه، كقول القائل في الفتى:

لَيْسَ الْفَتَى بَفَتَى لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا يَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارُ

وكقول آخر في مجوسي: [المتقارب]

شَهَدْتُ عَلَيْكَ بِطِيبِ الْمَشَاشِ وَأَنْتَ بَخْرٌ جَوَادٌ خَصَمُ
وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْجَحِيمِ إِذَا مَا تَرَدَيْتَ فِيمَنْ ظَلَمَ
قَرِينُهَا مَانَ فِي قَعْرِهَا وَفِرْعَوْنُ وَالْمُكْتَنَى بِالْحَكَمِ

وقد يختار ويحفظ أيضاً لنبل قائله، كقول المهدي: [السريع]

تُفَاحَةٌ مِنْ عِنْدِ تَفَاحَةِ جَاءَتْ فَمَاذَا صَنَعَتْ بِالْفَوَادِ
وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَبْصَرْتُمَا يَقْظَانِ أَمْ أَبْصَرْتُمَا فِي الرَّقَادِ

وكقول الرشيد: [البيسط]

النَّفْسُ تَطْمَعُ وَالْأَسْبَابُ عَاجِزَةٌ وَالنَّفْسُ تَهْلِكُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالطَّمَعِ

وكقول المأمون في رسول: [الطويل]

بَعَثَكَ مُسْتَأَقًا فَفَزْتَ بِنَظْرَةٍ
وَنَاجَيْتَ مَنْ أَهْوَى وَكُنْتَ مُقَرَّبًا
وَرَدَّدْتَ طَرْفًا فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهَا
أَرَى أَثْرًا مِنْهَا بِعَيْنِكَ لَمْ يَكُنْ لَقَدْ

وكقول عبد الله بن طاهر: [الوافر]

أَمِيلٌ مَعَ الذَّمَامِ عَلَى ابْنِ عَمِّي
وَإِنْ أَلْفَيْتَنِي مَلِكًا مُطَاعًا
أَفَرُّقُ بَيْنَ مَعْرُوفِي وَمَنِي
وَهَذَا الشَّعْرُ شَرِيفٌ بِنَفْسِهِ وَبِصَاحِبِهِ.

وكقوله: [المديد]

مُذْمِنُ الإِغْصَاءِ مَوْضُوعٌ
وَمَدِينُ البِيضِ فِي تَعَبٍ
وَأُخُو الوَجْهَيْنِ حَيْثُ وَهِيَ

وكقول إبراهيم بن العباس لابن الزيات: [الطويل]

أَبَا جَعْفَرَ عَرَّجَ عَلَى خُلَطَائِكَا
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتَيْتَ فِي اليَوْمِ رِفْعَةً
وَأَقْصَرَ قَلِيلًا مِنْ مَدَى غُلُوتِكَا
فَإِنْ رَجَّائِي فِي عَدِّ كَرَجَائِكَا

والتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً فليس به خفاءً على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير، وشدة العناء، ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجةً إليه، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه. كقول الفرزدق في عمر بن هبيرة لبعض

الخلفاء: [الوافر]

أَوْلَيْتَ العِرَاقَ وَرَافِدَيْهِ
فَزَارِيًّا أَحَدَ يَدِ القَوْمِ بَصِ

يريد: أوليتها خفيف اليد، يعني في الخيانة، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص، ورافداه: دجلة والفرات.

وكقول الآخر:

مِنَ اللّوَاتِيِ وَالْتِيِ وَالْأَلَاتِيِ زُعْمَنَ أَنِّي كَبَرْتُ لِدَاتِيِ

وكقول الفرزدق: [الطويل]

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِثْلَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفًا

فرفع آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يرضي، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيالاً وعمويه؟ وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فستمه وقال: علي أن أقول وعليكم أن تحتجوا! وقد أنكر عليه عبد الله بن إسحاق الحضرمي من قوله: [البيسط]

مُسْتَقْبِلِينَ مَسْأَلَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بِحَاصِبٍ مِّنْ نَّدِيفِ القُطْنِ مَشُورِ

عَلَى عَمَانَا تَلْقَى وَأَزْحُنَا عَلَى زَوَاجِفَ تُزْجِي مَحْهَارِيرِ

مَرْفُوعٌ فَقَالَ أَلَا قَلَّتْ عَلَى زَوَاجِفَ تُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

فغضب وقال: [الطويل]

فَلَوْ كَانَ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى هَجَوْتُهُ وَلَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

وهذا كثير في شعره على جودته.

وتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: ويم ذلك؟ فقال: لأنني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه.

وقال عبد بن سالم لرؤية: مت ياباً الجحاف إذا شئت! فقال رؤية: وكيف ذلك؟ قال:

رأيت ابنك عقبه ينشد شعراً له أعجبنى، قال رؤية: نعم، ولكن ليس لشعره قرآن. يريد أنه لا

يقارن البيت بشبهه. وبعض أصحابنا يقول قرآن بالضم، ولا أرى الصحيح إلا الكسر وترك الهمز على ما بينت.

والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغزيرة، وإذا امتحن لم يتعلم ولم يتزجر.

وقال الرياشي: حدثني أبو العالية عن أبي عمران المخزومي قال: أتيت مع أبي والياء على المدينة من قریش، وعنده ابن مطير، وإذا مطرٌ جوّدٌ، فقال له الوالي، صفه، فقال: دعني حتى أشرف وأنظر، فأشرف ونظر، ثم نزل فقال: [الكامل]

كفرت لكفرة قطره أطباؤه	فإذا تحلب فاصت الأطباء
وكجوف صرته التي في جوفه	جوف السماء سبخلة جوفاء
وله رباب هذب لرفيه	قبل التبثق ديمة وطفاء
وكان بارقه حريق يلتقي	ريح عليه وعزفج وآء
وكان ريقه ولما يخفيل	وذق السماء عجاجة كذراء
مسنضحك بلوامع مستعير	بمدايع لم تمرها الأقداء
قله بلا حزن ولا بمسرة	ضحك يؤلف بينه وبكاء
خيران متبع صباه تقوده	وجنوبه كنف له ووعاء
ودنت له نكباؤه حتى إذا	من طول ما لعبت به النكباء
ذاب السحاب فهو بحر كله	وعلى البحور من السحاب ساء
فقلت كلاء فهزت أضلابه	وتبعجت من مائه الأخشاء
عدو ينتج بالأباطح فرقا	تلد السيول ما لها أسلاء
غرر محجلة دوالح ضمنت	حمل اللقاح وكلها عذراء
سحم فهن إذا كظمن فواجم	سود وهن إذا صجكن وضاء

لَوْ كَانَ مِنْ لُجْحِ السَّوَاجِلِ مَاؤُهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ لُجْحِ السَّوَاجِلِ مَاءٌ
قال أبو مُحَمَّد: وهذا الشعر، مع إسراعه فيه كما ترى، كثير الوشي لطيف المعاني.

وكان الشماخ في سفرٍ مع أصحابٍ له، فنزل يحدو بالقوم فقال: [الرجز]

لَمْ يَبْقَ إِلَّا مِنْطَقٌ وَأَطْرَافٌ وَرَيْطَتَانِ وَقَمِيصٌ هَفْهَافٌ
وَشُعْبَتَا مَيْسٍ بَرَاهَا إِمْكَافٌ يَارُبُّ عَازٍ كَارِهِ لِلإِيحَافِ
أَغْدَرَ فِي الْحَيِّ بَرُودَ الْأَصْيَافِ مُرْتَجَّةَ الْبُيُوصِ خَضِيبِ الْأَطْرَافِ

ثم قطع به هذا الروي وتعدر عليه، فتركه وسمح بغيره على إثره، فقال: [الرجز]

لَمَّا رَأَتْنَا وَاقْفِي الْمَطِيَّاتِ قَامَتْ تَبَدَّى لِي بِأَضْلِيَّاتِ
غُرٍ أَضَاءَ ظَلْمَهَا الثَّنِيَّاتِ خَوَّذَ مِنْ الظَّعَائِنِ الضَّمْرِيَّاتِ
حَلَالَةُ الْأَوْدِيَةِ الْغُورِيَّاتِ صَفِيُّ أَتْرَابِهَا حَيَّاتِ
مِنْ لِي الْأَشْمَاءِ أَوْ الْبَرْدِيَّاتِ أَوْ الْعَمَامَاتِ أَوْ الْوَدِيَّاتِ
أَوْ كَظِيَاءِ السُّدْرِ الْعُرِيَّاتِ يَخْضُنَ بِالقَيْظِ عَلَى رَكِيَّاتِ
وَصَفْنِ أَنْطَا عَلَى زُرِّيَّاتِ نُمَّ جَلَسْنَ بِرُكَّةِ الْبُخِّيَّاتِ
مَنْ رَاكِبٌ يُهْدِيهَا النَّحِيَّاتِ أَرْوَعُ خَرَّاجٍ مِسْنِ الدَّوِيَّاتِ

قال أبو عبيدة: اجتمع ثلاثة من بني سعد يراجزون بني جعدة، فقبل لشيخ من بني سعيد: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أفصح، وقيل لآخر: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل ولا أنكف، وقيل للثالث: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل ولا أنكش، فلما سمعت بنو جعدة كلامهم انصرفوا ولم يراجزوهم.

والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء. ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعدر عليه الغزل.

وقيل للعجاج: إنك لا تحسن الهجاء؟ فقال: إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم، وأحساباً تمنعنا من أن نظلم، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم.

وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل، لأن المديح بناءً والهجاء بناءً، وليس كل باني بضربٍ بانيًا بغيره. ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيراً، فهذا ذو الرمة، أحسن الناس تشبيهاً، وأجودهم تشبيهاً، وأوصفهم لرميل وهاجرة وفلاة وماء وقرادٍ وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع. وذاك أخره عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعاد غزلانٍ ونقط عروسٍ! وكان الفرزدق زير نساءٍ وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يبيد التشبيب. وكان جريراً عفيفاً عزهاةً عن النساء، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيهاً، وكان الفرزدق يقول: ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري، وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون.

عيوب الشعر

١- الإقواء والإكفاء:

قال أبو مُحَمَّد: كان أبو عمرو ابن العلاء يذكر أن الإقواء: هو اختلاف الإعراب في القوافي، وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة، كقول النابغة: [البيسط]

قالت بَنُو عامِرٍ خَالُوا بَنِي أَمِيدٍ يابُؤُسُ لِلجَهْلِ ضَرَاراً لِأَقْوَامِ

وقال فيها:

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الإِظْلَامُ إِظْلَامٌ

وكان يقال: إن النابغة الذبياني وبشر بن أبي خازم كانا يقويان، فأما النابغة فدخل يشرب فغنى شعره ففطن فلم يعد للإقواء.

وبعض الناس يسمى هذا الإكفاء، ويزعم أن الإقواء نقصان حرف من فاصلة البيت، كقول حجل بن نضلة، وكان أسر بنت عمرو ابن كلثوم وركب بها المفاوز، واسمها النوار:

[الكامل]

خَنَّتْ نَوَارٌ وَلَاتَ هَنَّا خَنَّتِ وَيَدَا الَّذِي كَانَتْ نَوَارٌ أَجْنَتِ

لَمَّا رَأَتْ مَاءَ السَّلَا مَشْرُوباً وَالْفَرْثُ يُعَصِّرُ فِي الإِنَاءِ أَرْتِ

سمى إقواءً لأنه نقص من عروضه قوة. وكان يستوي البيت بأن تقول متشرباً. يقال أقوى فلان الحبل إذا جعل إحدى قواه أغلظ من الأخرى، وهو حبل قوي.

مثل قول حميد:

إِنِّي كَبِرْتُ وَإِنَّ كُلَّ كَبِيرٍ عَمَّا يُضَنُّ بِهِ يَمَلُّ وَيَفْتُرُ

وكقول الربيع بن زياد: [الكامل]

أَفْبَعْدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ تَرْجُو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الأَطْهَارِ

ولو كان بن زهيرة لاستوى البيت.

٢- والسناد: هو أن يختلف إرداف القوافي، كقولك علينا في قافية وفينا في أخرى.

كقول عمرو بن كلثوم: [الوافر]

أَلَا هُبِّي بِصَخْنِكَ فَاصْبِحْنَا

فالحاء مكسورة. وقال في آخر:

تُصَفِّقُهَا الرَّيَّاحُ إِذَا جَرَيْنَا

فالراء مفتوحة، وهي بمنزلة الحاء.

وكقول القائل: [الوافر]

كَأَنَّ عَيْبًا وَسُوءًا عَيْبُونَ عَنِّي

ثم قال:

وَأَصْبَحَ رَأْسُهُ مِثْلَ اللَّجِينِ

٣- والإيطاء: هو إعادة القافية مرتين، وليس بعيب عندهم كغيره.

٤- الإجازة: اختلفوا في الإجازة، فقال بعضهم: هو أن تكون القوافي مقيدة فتختلف

الأرداف، كقول امرئ القيس: [المقارب]

لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَوْفَرُ

فكسر الراء، وقال في بيت آخر:

وَكِنْدَةٌ حَوْلِي جَمِيعًا صُبْرُ

فضم الراء، وقال في بيت آخر:

أَلْحَقَّتْ شَرًّا بِشَرِّ

ففتح الراء.

وقال الخليل بن أحمد: هو أن تكون قافية مبياً والأخرى نونا، كقول القائل:

يَا رَبِّ جَعَدَ مِنْهُمْ لَوْ تَذَرِينِ . يَضْرِبُ ضَرْبَ السَّيِّطِ الْمَقَادِيمِ

أو طاء والأخرى دالاً، كقول الآخر:

تَاللَّهِ لَوْلَا شَيْخُنَا عَبَّادُ . لَكَمْزُونَا عِنْدَهَا أَوْ كَادُوا

فَرَشَطَ أَلَا كَرَةَ الْفَرَشَاطُ . بَفَيْشَةٍ كَأَيْمَانِهَا مِلْطَاطُ

وهذا إنما يكون في الحرفين يخرجان من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين.

قال ابن الأعرابي: الإجازة: مأخوذة من إجازة الحبل والوتر.

٥- العيب في الإعراب:

وقد يضطر الشاعر فيسكن ما كان ينبغي له أن يحركه، كقول لبيد: [الكامل]

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَزْضَها أَوْ يَعْثَلِقِ بَعْضُ النَّفُوسِ هِامَهَا

يريد: أترك المكان الذي لا أرضاه إلى أن أموت، لا أزال أفعل ذلك.

وأوهنا بمنزلة حتى. وكقول امرئ القيس: [السريع]

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِغِلِ

ولولا أن النحويين يذكرون هذا البيت ويحتجون به في تسكين المتحرك لاجتماع

الحركات، وأن كثيراً من الرواة يروونه هكذا، لظنته:

فَالْيَوْمَ أَسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ

قال أبو محمد: وقد رأيت سيويه يذكر بيتاً يحتاج به في نسق الاسم المنصوب على

المخفوض، على المعنى لا على اللفظ، وهو قول الشاعر: [الوافر]

مُعَاوِيَ إِنَّنَا بَشْرٌ فَأَنْجِعْ فَلَسْنَا بِالْجَبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا

قال: كأنه أراد: لسنا الجبال ولا الحديداء، فرد الحديد على المعنى قبل دخول الباء، وقد

غلظ على الشاعر، لأن هذا الشعر كله مخفوض، قال الشاعر: [الوافر]

فَهَبْنَاهَا أُمَّةً ذَهَبَتْ ضَيَاعاً يَزِيدُ أُمِيرُهَا وَأَبُو يَزِيدِ

أَكَلْتُمْ أَزْضَنَا وَجَرَدْتُمُوها فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَصيدِ

ويحتاج أيضاً بقول الهذلي في كتابه، وهو قوله: [الوافر]

بَيْتٌ عَلَى مَعَارِي فَاخِرَاتِ بَيْنَ مَلُوبٍ كَدَمِ الْعِبَاطِ

وليست هاهنا ضرورة فيحتاج الشاعر إلى أن يترك صرف معارٍ ولو قال:

بَيْتٌ عَلَى مَعَارٍ فَاخِرَاتِ

كان الشعر موزوناً والإعراب صحيحاً.

قال أبو محمد: وهكذا قرأته على أصحاب الأصمعي.

وكقوله في بيتٍ آخر:

لَيْتَكَ يَزِيدُ ضَارِعَ حِصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٍ مِمَّا تُطَيِّحُ الطَّوَائِحُ
وكان الأصمعي ينكر هذا ويقول: ما اضطره إليه؟ وإنما الرواية:

لَيْتَكَ يَزِيدُ ضَارِعَ حِصُومَةٍ

وكذلك قول الفراء: [الرمل]

فَلَسْنَا قَوْمٌ أَصَابُوا عِزَّةً وَأَصَبْنَا مِنْ زَمَانٍ رَنَقَا
لَلَّذِ كَانُوا أَلَدَى أَرْمَاتِهِ لَصَنِيعِينَ لِيَنَاسٍ وَتُقَى
هو فلقد كانوا وهذا باطل.

وكذلك قوله:

مَنْ كَانَ لَا يَزْعُمُ أَنِّي شَاعِرٌ فَيَذْنُ مِنِّي تَنْهَهُ الْمَزَاجِرُ
إنما هو فليدن مني وبه يصح أيضاً وزن الشعر.

وكذلك قوله:

فَقُلْتُ اذْهَبِي وَأَذْعُ فَإِنَّ أَلَدَى لَصَوْتٍ أَنْ يُنَادِي دَاعِيَانِ
إنما هو:

فَقُلْتُ اذْهَبِي وَأَذْعُو إِنَّ أَلَدَى

وكقول الفرزدق: [السريع]

رُحَّتْ فِي رِجْلَيْكَ عُقَالَةٌ وَقَدْ بَدَا هَنَكِ مِنَ الْمُشْرَرِ

وقد يضطر الشاعر فيقصر الممدود، وليس له أن يمد المقصور. وقد يضطر فيصرف غير

المصرف، وقبيح ألا يصرف المصرف. وقد جاء في الشعر، كقول العباس بن مرداس

السلمي: [المتقارب]

وَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسٍ فِي تَجْمَعِ

وأما ترك الهمز من المهموز فكثيرٌ واسعٌ، لا عيب فيه على الشاعر، والذي لا يجوز أن يهمز

غير المهموز.

وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام الذي لم يكثر، ككثير من أبنية سيبويه، واستعمال اللغة القليلة في العرب، كإبدالهم الجيم من الياء، كقول القائل: (يا رب إن كنت قبلت حجتج) يريد حجتتي، وكقولهم: (جمل بختج) يريدون بختي. وعلج يريدون علي.

وإبدالهم الياء من الحرف في الكلمة المخفوضة، كقول الشاعر:

هَآ أَشَارِيرُ مِنْ لَحْمٍ تَمَمَّرُهُ مِنْ التَّعَالِي وَوَحْزُ مَنْ أَرَانِيهَا

يريد من أرائبها وكقول الآخر: ولضفادى جمه تقانق يريد ضفادع.

وكإبدالهم الواو من الألف، كقولهم أفعو وحبلو يريدون أفعى وحبلي وقال ابن عباس: لا بأس برمي الحدو للمحرم وأستحب له ألا يسلك فيما يقول الأساليب التي لا تصح في الوزن ولا تحلو في الأسعاع، كقول القائل:

قُلْ لِسُلَيْمَى إِذَا لَاقَيْتَهَا هَلْ تَبْلُغُنَّ بِلُدَّةَ إِلا بِرِزَادِ

قُلْ لِلصَّبَّالِيكِ لا تَسْتَجِيرُوا مِنْ أَلْتَمَاسِ وَسَيْرِ فِي الْبِلَادِ

فَالغَزْوُ أَحْجَى عَلَى مَا حَيَلْتِ مِنْ اضْطِجَاعِ عَلَى غَيْرِ وَسَادِ

لَوْ وَصَلَ الْغَيْثُ أَبْنَاءَ امْرِئٍ كَانَتْ لَهُ قُبَّةٌ سَخِقُ بِجَادِ

وَبِلُدَّةٍ مُقْفِرٍ غِيظًا هَا أَضْدَاؤُهَا مَغْرِبَ الشَّمْسِ تَنَادِ

قَطَعْتَهَا صَاحِبِي حَوْشِيَّةً فِي مِرْقَيْهَا عَنِ الزَّوْرِ تَعَادِ

وكقول المرقش: [السرير]

هَلْ بِالْذِّيارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمَ لَوْ أَنَّ حَيًّا نَاطِقًا كَلَّمُ

يَأْبَى الشَّبَابُ الْأَقْوَرِينَ وَلَا تَغْبِطُ أَحْكَأكَ أَنْ يُقَالَ حَكَمُ

قال أبو محمد: وهذا يكثر، وفيها ذكرت منه ما ذلك على ما أردت من اختيارك أحسن

الروي، وأسهل الألفاظ، وأبعدها من التعقيد والاستكراه وأقربها من إفهام العوام.

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه ولقبه^(١):

هو الإمام الحافظ الحجة الكاتب الأبرع العلامة البليغ الحافظ المجود المقرئ مجد العلماء أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضَاعِي الأندَلُسِي البَلَنْسِي ثم التُونِسِي الكاتب المنشئ، المعروف بـ(الأبَار) وبـ(ابن الأبَار).

مولده:

ولد ببلنسية من شرقي بلاد الأندلس في أحد الربيعين من سنة خمس وتسعين وخمسة.

نشأته:

سمع من أبيه وتفقه على يديه، وعُني بالحديث، وتجول بالأندلس، وكتب العالي والنازل. وكان بصيراً بالرجال، عارفاً بالتاريخ إماماً في العربية، فقيهاً، مقرئاً، إخبارياً، فصيحاً، مفوهماً، له يدٌ في البلاغة والإنشاء، والنظم، والنثر. كامل الرقاسة، ذا جلاله وآبئة وتجمُّلٍ وافر. وله مصنفات كثيرة في الحديث، والتاريخ، والآداب.

ويعتبر ابن الأبَار من أعيان المؤرخين والأدباء، رحل عن الأندلس لما احتلها الإفرنج، واستقر بتونس، فقربه صاحب تونس السلطان أبو زكريا، وولاه كتابة (علامته) في صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها، وأعادها.

(١) اختصار القدر المعلق لابن سعيد: ١٩٢-١٩٥، الترجمة ٥٨، المغرب في حل المغرب لابن سعيد أيضاً ٣٠٩/٢، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي: ٦/٢٥٣-٢٧٥ الترجمة ٧٠٩، عنوان الدراية للغبريني: ٣٠٩-٣١٣، الترجمة ٩٥، تاريخ الإسلام للذهبي ١١/٢٩٤، تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٥٢، ولم يذكر له ترجمة وافية وقال ذكرته في "المتع"، العبر: ٥/٢٤٩، الوافي بالوفيات: ٣/٣٥٥-٣٥٨ الترجمة ١٤٣٦، فوات الوفيات: ٣/٤٠٤-٤٠٧، الترجمة: ٤٧١، عيون التواريخ: ٢٠/٢٤٥، النجوم الزاهرة: ٧/٩٢ أزهار الرياض ٣/٢٠٤-٢٢١، نفع الطيب: ٢/٥٨٩-٥٩٤ الترجمة ٢١٨ وأحوال على ترجمته الموسعة التي كتبها في أزهار الرياض، شذرات الذهب: ٥/٢٧٥.

ومات أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر فرفع هذا مكانته، ثم علم المستنصر أن ابن الأبار كان يزري عليه في مجالسه، وعزيت إليه أبيات في هجائه، فأمر به فقتل قصعاً بالرماح في تونس.

شيوخه:

- ١- أبيه الإمام أبي مُحَمَّد الأبار.
- ٢- القاضي أبي عَبْدِ الله بن نوح الغافقي.
- ٣- أبو الخطاب ابن واجب.
- ٤- أبو داود سليمان ابن حوط الله.
- ٥- أبو عَبْدِ الله مُحَمَّد بن عَبْدِ العزيز بن سعادة.
- ٦- أبو علي الحسين بن يوسف بن زلال.
- ٧- أبو عَبْدِ الله ابن اليتيم.
- ٨- الحافظ أبي الربيع ابن سالم.
- ٩- أبو بكر مُحَمَّد بن أحمد بن جمرة.
- ١٠- أبو الربيع سليمان بن موسى بن مسلم الكَلَاعِي.

مؤلفاته:

- ١- كَمَل " الصلة " لابن بشكوال بكتاب في ثلاثة أسفار . قال الشيخ شمس الدين : اختصرته في مجلد واحد.
- ٢- وله جزء سماه " دَرَر السِمْط في خبر السِمْط " يعني: الحسين بإنشاء بديع يدل على تشيع فيه ظاهر، لأنه يصف علياً رضي الله عنه بالوصي، وينال من مُعَاوِيَةَ وآله.
- ٣- وكتاب " تحفة القادم " تراجم شعراء .
- ٤- وكتاب " إِيْمَاض البرق " .
- ٥- و" الحُتْلَة السِراء في أشعار الأمراء " .

٦- و"إعتاب الكتاب".

٧- و"إياض البرق في أدباء الشرق".

٨- و"الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة".

٩- و"مظاهرة المسعى الجميل ومحاضرة المرعى الوييل" في معارضة (ملقى السبيل) للمعري.

١٠- و"هداية المعترف في المؤلف والمختلف".

١١- و"الأربعون عن أربعين شيخاً من أربعين تصنيفاً لأربعين عالماً من أربعين طريقاً إلى

أربعين تابعياً عن أربعين صحابياً لهم أربعون اسماً من أربعين قبله في أربعين باباً".

١٢- و"إعانة الحقيير في شرح زاد الفقير".

١٣- و"قطع الديار في متخير الأشعار".

١٤- و"معادن اللجين في مرآة الحسين".

١٥- و"أنيس الجليس ونديم الرئيس".

مقتطفات من شعره:

من شعره يصف المركب [البسيط] :

تطفو لما شب أهل النار تطفئه

حمام البيض للإشراك ترزؤه

فما لراكبه بالقار يهنؤه

وهو ابن ماء وللشاهين جوؤه

يا حبذا من بنات الماء سابحة

تطيرها الريح غرباناً بأجنحة الـ

من كل أدهم لا يلقى به جرب

يُدعى غرباناً وللفتخاء سرعته

ومنه [المتدارك] :

يكسوني السقم مجرّده

بأبي ما أودع مجسده

جر بفؤادي موقده

مرقوم الخلد مورّده

شفاف الدر له جسده

في وجنته من نعمته

نظرت عيناى له خطأ
 ريم يرمي عن أكحلّه
 متداني الخطوة من ترف
 ولاء الحسن وأمره
 فبأبى الأنظار تعمّده
 زرقاً تُصمي من يصمده
 أترى الأحجال تقيده
 وأتاه السحر يؤيده

ومنه [الطويل] :

ونهر كما ذابت سباتك فضة
 إذا الشفق استولى عليه أحراره
 وتحسبه سنت عليه مفاضة
 وتطلع من دكنة بعد زُرقة
 كما انفجر الفجر المطل على الدجى
 حكى بمحانيه أنعطاف الأرقام
 تبدى خضياً مثل دامي الصوارم
 لأن هاب هبات الرياح النواسم
 ظلال لأدواح عليه نواعم
 ومن دونه في الأفق سحم الغائم

ومنه أيضاً [مجزوء الكامل] :

الله نهـر كالحبـاب
 يصف السماء صفاؤه
 وكأنها هـورقـة
 غارت على شطّيه أبـ
 والظلل يبدو فوقه
 لا بل أدار عليه خو
 مثل المجرّة جرّ فيـ
 ترقيشه سامي الجباب
 فحصاه ليس بنذي اصطخاب
 من خالص الذهب المذاب
 ككار المنسى عصر الشباب
 كالحبال في خد الكعباب
 ف الشمس منه كالتنّاب
 لها ذيله جـون السحاب

ومنه أبيات [الكامل] :

شتى محاسنه فمن زهر على
 عريت به شمس الظهيرة لا تني
 حتى كساه الدوح من أفنانه
 نهر تسلسل كالحباب تسلسلا
 إحراق صفحته لهيباً مشعلا
 بُرداً يمزق في الأصايل سلسلا

وكانها لمع الظلال بمتنه
 وله قصيدته السينية المشهورة: [البيط]
 أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
 وهب لها من عزيز النصر ما التمنت
 وحاش مما نعانیه حشاشتها
 يا للجزيرة أضحى أهلها جزارا
 في كسل شارقة إمام باثقة
 وكل غارية إجحاف نائبة
 تقاسم الروم لانا لت مقاسمهم
 وفي بلنسة منها وقرطبة
 مدائن حلها الإشراف مبتسا
 كانت حدائق للأحداق مونقة
 وحال ما حولها من منظر عجب
 مرعان ما عاث جيش الكفر واحربا
 وابتزيتهما مما تحيفها
 فأين عيش جنيناه بها خضرا
 حتى محاسنها طاغ أتيج لها
 ورج أرجاءها لما أجات بها
 خلا له الجوفامتدت يدها إلى
 وأكثر الزعم بالتثليث منفردا
 صل حيلها أيها الملى الرحيم فما
 وأحي ما طمست منها العداة كما
 قطع الدماء جمدن حين تحللا
 إن النسبيل إلى منجاتها درسا
 فلم يزل منك عز النصر ملتسا
 فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
 للحوادث وأمسى جدها تعسا
 يعود مأتمها عند العدا عرسا
 تثنى الأمان حذار والسرور أسا
 ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
 ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
 جذلان وارتحبل الإيمان مبتسا
 فصوح النصر من أدواحها وكسا
 يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
 عيث البيا في مغانيها التي كبسا
 تحيف الأسد الضاري لما افترسا
 وأين غصن جنيناه بها سلسا
 ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
 فغادر الشم من أعلامها خنسا
 إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
 ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
 أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
 أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

وَبُتَّ مِنْ نَوْرِ ذَاكَ الْهُدَى مَبْتَسَا
 كَالصَّارِمِ اهْتَزَّ أَوْ كَالْعَارِضِ انْبَجَسَا
 وَالصَّبْحُ مَا حِيَةَ أَنْوَارِهِ الْغَلَسَا
 يَوْمَ الْوَعَى جَهْرَةً لَا تَرْقُبُ الْخَلَسَا
 وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُو لِمَنْ يَسْأَسَا
 مِنْكَ الْأَمِيرُ الرِّضَا وَالسَّيِّدُ الْبُنْدَسَا
 كَمَا طَلَبْتَ بِأَقْصَى شِدَّةِ الْفِرْسَا
 حَفْصٌ مَقْبَلَةٌ مِنْ تَرَبَةِ الْقُدْسَا
 دِينًا وَدُنْيَا فَغَشَّهَا الرِّضَا لِبَسَا
 وَكُلُّ صَادِقٍ إِلَى نَعْمَاءٍ مَا تَمَسَا
 وَلَوْ دَعَا أَفْقًا لِحَى وَمَا احْتَبَسَا
 مَا جِبَالٌ فِي خَلْدِ يَوْمَا وَلَا هَجَسَا
 وَدَوْلَةٌ عَزَمَهَا يَسْتَصْحَبُ الْقَعَسَا
 وَيَطْلُعُ اللَّيْلُ مِنْ ظِلْمَاتِهِ لِعَسَا
 طَلَقَ الْمَحْيَا وَوَجْهَ الدَّهْرِ قَدْ عَبَسَا
 تَحْفٌ مِنْ حَوْلِهِ شَهَبُ الْقَنَا حِرْسَا
 وَعَرَفَ بِمَعْرُوفِهِ وَاسَى الْوَرَى وَأَسَا
 وَأَنْشَرَتْ مِنْ وَجُودِ الْجُودِ مَا رَمَسَا
 مَا قَامَ إِلَّا إِلَى حَسْنَى وَلَا جَلَسَا
 فَمَا يِبَالِي طُرُوقَ الْخُطْبِ مَلْتَبَسَا
 فِي اللَّيْثِ مَفْتَرَسَا وَالغَيْثِ مَرْتَبَسَا
 حَيًّا لِقَاحًا إِذَا وَفَيْتَهُ بِخَسَا

أَيَّامٍ سَرَّتْ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُسْتَبَقَا
 وَقَمَنْتَ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ مُتَّصِرَا
 تَمَحَّوْا الَّذِي كَتَبَ التَّجْسِيمَ مِنْ ظَلَمٍ
 وَتَقْضِي الْمَلِكِ الْجَبَّارِ مَهْجَتَهُ
 هَذَا رِسَالَتُهَا تَدْعُوكَ مِنْ كَثِبٍ
 وَافْتِكَ جَارِيَةً بِالنَّجْحِ رَاجِيَةً
 وَرِيَّاسًا سَبَحَتْ وَالرِّيْحَ عَاتِيَةً
 تَوْمٌ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي
 مَلِكٍ تَقَلَّدَتْ الْأَمْلَاكُ طَاعَتَهُ
 مِنْ كُلِّ غَادٍ عَلَى يَمَنَاهُ مُتَسَلِّمًا
 مُؤَيِّدٌ لَو رَمَى نَجْمَهَا لِأَيْمِيَّتِهِ
 تَالَهُ إِنَّ الَّذِي تَرَجَى السَّعُودَ لَهُ
 إِمَارَةٌ يَجْمَلُ الْمَقْشَدَارُ زَايَتَهَا
 يَيْدِي النَّهَارِ بِهَا مِنْ ضَوْئِهِ شَنِيبًا
 مَاضِي الْعَزِيمَةِ وَالْأَيَّامِ قَدْ نَكَلَتْ
 كَأَنَّهُ الْبَدْرُ وَالْعَلِيَاءُ هَالَتَهُ
 تَدْبِيرُهُ وَضَعُ الدُّنْيَا وَمَا وَسَعَتْ
 قَامَتْ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ دَوْلَتُهُ
 مَبَارَكٌ هَدَيْتَهُ بِإِدِّ سَكِينَتِهِ
 قَدْ نَوَّرَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى بِصِيرَتِهِ
 بَرَى الْعَصَاةَ وَرَاشَ الطَّائِعِينَ فَعَلَّ
 وَلَمْ يَغَادِرْ عَلَى سَهْلٍ وَلَا جَبَلٍ

فرب أصيد لا تلقي به صيداً ورب أشوس لا تلقي له شوسا
 فظل يوطن من أرجائها حرماً وبات يوقد من أضوائها قبسا
 بشرى لعبد إلى الباب الكريم حداً وآماله. ومن العذب المعين حسا
 كأنها يمتطي واليمين يصحبه من البحار طريقاً نحوه ييسا
 فاستقبل السعد وضاحاً أسرته من صفحة فاض منها النور وانعكسا
 وقبل الجود طفاحاً غواربه من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
 يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا
 وقد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
 طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم يغسل النجسا^(١)
 وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطي رأسا كل من رأسا

أقوال العلماء فيه:

- ١- ذكره أبو جعفر بن الزبير وقال: هو محدث بارع، حافل، ضابط، متقن، وكاتب بليغ وأديب حافل حافظ. وقال أيضاً: وكان متفناً متقدماً في الحديث والآداب سنياً متخلقا فاضلاً قُتِلَ صبراً ظلماً وبغياً في أواخر عشر ستين وست مئة.
- ٢- وقال الذهبي: كان بصيراً بالرجال المتأخرين، مؤرخاً، حلوا الترجمة، فصيح العبارة، وافر الحشمة، ظاهر التجميل، من بلغاء الكتبة. ووصفه الذهبي في "تذكرة الحفاظ" بالعلامة البليغ المنشى الحافظ المحدث وقال: ذكرته في الممتع.
- ٣- قال الغبريني في "عنوان الدراية": "ولو لم يكن له إلا كتاب اللجين في مرثي الحسين لكفاه في ارتفاع درجته وعلو منصبه وسمو رتبته فكيف لا وله تصانيف دونه.

(١) "غسل النجسا" هكذا ثبت بالنون كما رأيته في بعض النسخ العتيقة وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء لأن مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية ولم يشتهر عند أكثر الناس إلا بالتاء والصواب ما قدمته من أنه بالنون والله اعلم.

وقال عنه أيضاً: لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص.

٤- وقال عنه ابن خلدون في "تاريخه" بعد أن وصفه بالحافظ: كان علامة في الحديث ولسان العرب بليغاً في الترسيل والشعر.

وفاته:

قُتِلَ مظلوماً بتونس على يد صاحبها في يوم الثلاثاء العاشر من محرم سنة ثمان وخمسين وستمائة؛ لأنه تخيل منه الخروج، وشق العصا، وقيل: إن بعض أعدائه ذكر عند صاحب تونس أنه ألف تاريخاً، وأنه تكلم فيه في جماعة، فلما طُلب أحس بالهلاك، فقال للغلام: خذ البغلة، وامض بها إلى حيث شئت فهي لك.

قال قاضي القضاة ولي الدين ابن خلدون في تاريخه الكبير الموسوم بـ"ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" ما نصه: وسيقت مجلدات كتبه وأوراق ساعه ودواوينه فأحرقت معه.

وقال عنه عَبْدُ الحَيِّ الكِتَابِي في كتاب "فهرس الفهارس" بعدما ساق خبر قتله وحرقه: وهذه والله شناعة ما فوقها شناعة، ورزية ما بعدها رزية، إلا قتله ثم حرقه، وهو عندي عدل ابن الخطيب وابن خلدون في الإنشاء وملكة الشعر، ويفوقهما بصناعة الحديث ومعرفته معرفة تامة ليس للتونسيين من يشاركه أو يضارعه فيها.

وصف النسخة الخطية

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب الطيب المبارك على نسخة مخطوط موجودة في مكتبة مدريد الوطنية رقم (٤٨٩٦)، وقد نُقلت عن نسخة مكتبة الاسكوريال، وعدد أوراقها (١٨٠) ورقة، وفي كل صفحة (١٩) سطرا، وقد كُتبت بخط جميل وواضح، وإن كان فُقد منها بعض الأوراق الأولى، وقد نُسخت بخط أبي عبيد الله علي بن مُحَمَّد الكفاد الأندلسي، وانتهى من نسخها في الثالث عشر من شعبان سنة ٩٩٠هـ.

ومن المعلوم أن نسخة الاسكوريال هي أقدم نسخة لكتاب الحلة السرياء بعد أن فُقدت النسخة الأصلية بخط ابن الأبار نفسه، وهي موجودة في فهرست غزيري برقم (١٦٤٩)، وعدد أوراقها (١٩٧)، والمخطوط ناقص الأول.

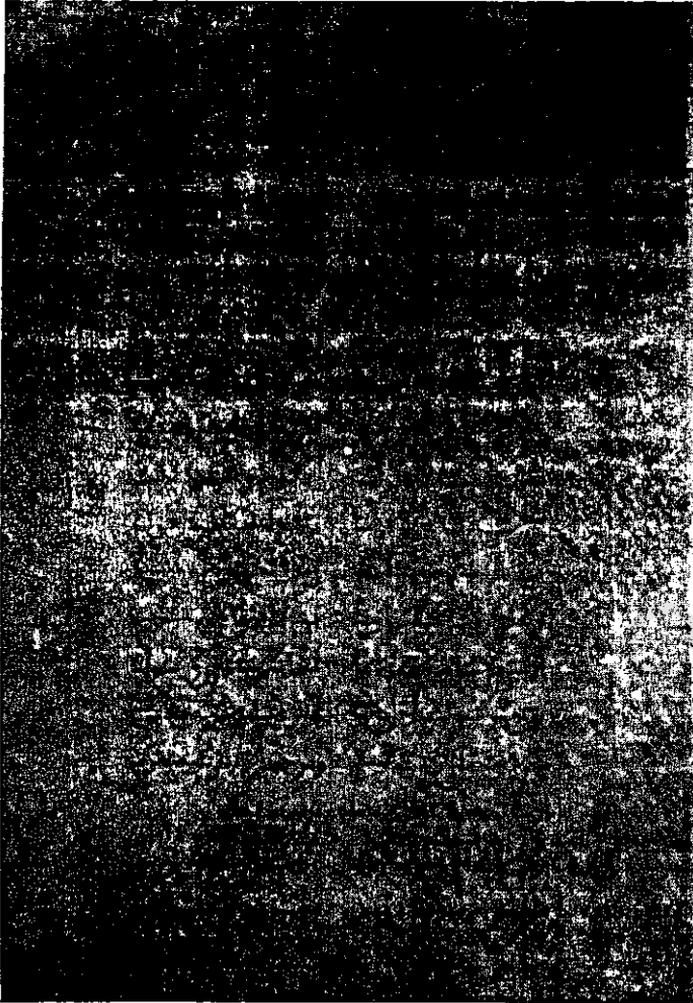
منهج التحقيق

وقد كان عملي في الكتاب على النحو التالي:

- ١- قمت بمطابقة المطبوع على المخطوط وفقا للقواعد العلمية، من تصويب للأخطاء، ووضع علامات ترقيم النص حتى يسهل قراءته.
- ٢- قمت بتخريج الآيات القرآنية، والدلالة على مواضعها.
- ٣- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في الكتاب.
- ٤- قمت بالإحالة في كتب التراجم على أسماء الشعراء الذين ذكروهم المؤلف.
- ٥- قمت بالتعليق على المواضع التي تحتاج إلى زيادة شرح وإسهاب وتوضيح.
- ٦- صنعت مقدمة لخصت فيها الضروري والمهم حول الشعر وصناعته.
- ٧- صنعت فهرس تفصيلية للمكتاب.

وأخيرا: أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب القارئ والسامع والناظر فيه، وكل من شارك فيه ولو بنصح، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم.

اللوحة الأولى للمخطوط



اللوحة الأخيرة للمخطوط

obeyikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

بنى لي المجد آباء كرام
وهذبني الإباء ففات طرفي
وقبلها بما يصل جلها ويصف فضلها:
وما للناس منا غير رعي
فيمنعهم وما شعبوا مضاماً
ولهم رضي الله عنهم، وسمعت ذلك منهم:

أجب داعيها فالنجيب يجيب
وشم عزمة لا يغمز العجز متنها
ولا تبتغ العلياء إلا بأبيض
وأسمر غر شيب الوقع رأسه
وإن شئت قلت النجم توج رأسه
ينضنض صلاً ثم يسوى كأنه
وصفراء ريتها الجيوب وراوحت
إذا عييج متنها أقيمت شباتها
فإن سدكت بالكف أو فل خطورها

ورثنا مجدهم باعاً فباعا
وكل بعد يجري ما استطاعا
يفيدهم رفاهاً وانتفاعا
ويوسعهم وما سقوا انتجاعا

وشب لظاها فالنخيب يخيب
فدو العزم في اليوم الصعيب يصيب
لغزيبه في هام الكهامة غروب
ألا إنهما بعد القشيب مشيب
فلاح له بين القلوب ثقوب
رشاء له قلب الكمي قليب
ذوائبها فوق الجيوب جنوب
فمنها سروب لا يرى ورسوب
فخطر بنيتها في الحروب رحيب

(١) هناك خرم في أول النسخة الخطية، وكذلك في كل نسخ الرحلة السراء، لأن النسخة التي بيد المؤلف مفقودة، وأقدم نسخة للكتاب هي نسخة الاسكوريال وهناك خرم بأولها.

وأجرد يستجلى بأوضاعه الوغى
 إذا ما استحر الضرب واشتجر القنا
 له من سعالي^(١) الجن خلق مطهم
 بتلك ينال الوتر لو حال دونه
 فدع عنك أبناء الزمان فكلهم
 فلا توردنه وردك الصفو إنه
 [.....]^(٢) ساوى الرجال فباسم
 [.....]^(٣) قريبي يعردها يبيأ
 [.....]^(٤) إلى الخليل محلّة
 [.....]^(٥) يديك فإنسه
 ألا فاستعن واستغن بالله إنه
 ولهم - أيدهم الله - في استقبال حضرتهم العلية من بعض غزواتهم الميمونة:
 وتقر جفون عينك بالقرار
 ألح البرق معترضاً فغارت
 خفي يسري وظل الدمع يجري
 وهاب البدر أن يفري دجاء
 وقد جنها يوم الركوب عكوب
 بدا وهو في حال [.....].
 يروع، ومن هوج الرياح هبوب
 سهوب، وحالت عن مداه لهوب
 له عند تمحيص الغيوب غيوب
 شروب وعند الحادثات شروب
 له عند هبات الخطوب خطوب
 ويبأى إذا الحق النؤوب يؤوب
 وقد جعلت [.....]^(٦)
 سواء قريب في الوري وغريب
 لفتح بتقدير الرقيب قريب
 ومن شرط الهوى رعى الذراري
 نجوم الأفق من ماء ونار
 فواحرياه من سار وجار
 فهلك عن الشرار إلى السرار

(١) سعالي: جمع السعلاة، وهي أحببت الغيلان، وقيل: هي الأثني من الغيلان [لسان العرب: ١١/٣٣٦].

(٢) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٣) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٤) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٥) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٦) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

وساءل مسنداً يرويه عني فحدثه الزفير عن إدكار
سقى أعلام تونس فالخنايا فمقتبل العشية والعرار
فواكبده من شوق تناءت نهايته على قُرب المزار
وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الدير من الدير

ومن قلائدهم المزرية بقلائد العقيان، المرية على فرائد الجمان:

وحوراء تستعلي بنهدين أشرعا ولا غرو أن يدعو هواها فأتبعه
تقول، وقد رقت لما بي: أجازع وأنت جرى والأسنة مشرعه؟
فقلت لها: جفناك عزاً تجلدي ونهداك هداً نفس هيمان موجهه
وما زلت ألقى القرن يعسل رجه فمن لي بمن يلقى الفؤاد بأرعه؟

صدر هذا عنهم، دامت سعادتهم. وقد أنشد بمجلسهم العلي للقاضي أبي بكر بن العربي

في مداعب له من فتیان المثلثة هز رجه عليه وأوماً به إليه:

يهز على الرمح ظبي مهفهف لعوب بألباب البرية عابث
فلو كان رمحاً واحداً لآتقته ولكنه رمح وثان وثالث

كذا قرأت في ديوان شعرهم، أدام الله تأييد أمرهم. وهما عندي للقاضي أبي مُحَمَّد عَبْد الحق بن غالب بن عطية، أنشدنيهما القاضي أبو سليمان داود ابن سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي بمدينة بآنسية، وهو إذ ذاك يتولى قضاءها. قال: أنشدنا الشيخ أبو الحسين سراج بن عَبْد الله العثماني -مرات- للفقير القاضي أبي مُحَمَّد عَبْد الحق بن عطية^(١)؛ وذكر

(١) عَبْد الحق بن غالب بن عَبْد الرَّحْمَن بن غالب بن تمام بن عَبْد الرؤف بن عَبْد الله بن تمام بن عطية المحاربي، الغرناطي، المالكي؛ (أبو مُحَمَّد) عالم مشارك في الفقه والحديث والتفسير والتجويد واللغة والأدب. ولي القضاء بمدينة المرية، ورحل إلى المشرق، وتوفي، بلورقة في ١٥ رمضان.

من مؤلفاته: الجامع المحرر الصحيح الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وبرنامج ضمنه مروياته واسماء

البيتين، إلا أن صدر أولهما في هذه الرواية: (يهدني بالرمح ظبي مهفهف)، وصدر ثانيهما: (فلو كان ربحاً واحداً لا تقيته)، وباقيها سواء. ولمن كان منها ذلك فقد عدل به عن جادة الإجادة والزيادة.

ومن لزومياتهم السنية في غزلياتهم السلطانية:

أزيرق يا لله للحسن! أزرقا	بدت لك في ثوب يشف منجم
فلم أدر أي راعي حين أشرق	ولاحت، وبدر الأفق في الأفق كامل
تأني قليلاً حين شام فأبرقا	خلا أنه لما رأى حسن وجهها
فأقسم لولا رقة الوصل أحرقا	ودونها صفو الغدير مسلسلاً
أطل على متن الغدير فأطرقا	ولما رنا نحو السجندل ^(١) وجهها
فقارب في التشبيه منها وأغرقا	وزرت عليه الشهب ثوب سمائه
وبعداً وإشراقاً ووجهاً ترققا	ونازعها ثوباً ولوناً وورفة

ومن رفيع الرصف^(٢) ويديع الوصف قولهم، لا زال يجاري الأقدار عدلهم ويباري

الأمطار طولهم:

خدود الغواني أو قدود الكواعب	أعد نظراً حيث الرياض كأنها
ولكنها بين البصبا والجنايب	تميل وليست بين كأس وقينة
فجاء كمثل الفرق بين الذوايب	وسال نمير الماء بين أخضارها
والا كمثل الصبح بين الغياهب	والا كما شق الكنهور بارق
ولم تر جستاناً كأطراد المذائب	قد أطردت فيه المذائب دائماً

(١) السَّجَنْجَلُ: المرأة، وهو رومي معرب [مختار الصحاح: ١/١٢١].

(٢) الرِّصْفُ: ضَمُّ الشَّيْءِ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ وَنَظْمُهُ، رَصَفَهُ يَرِصُّهُ رِصْفًا فَارِصْفًا وَتَرِصَفُ وَتَرِصَفُ. قَالَ اللَّيْثُ: يُقَالُ لِلْقَائِمِ إِذَا صَفَّ قَدَمِيهِ رَصَفَ قَدَمِيهِ، وَذَلِكَ إِذَا صَمَّ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى. وَتَرِصَفُ الْقَوْمُ فِي الصَّفِّ أَي قَامَ بَعْضُهُمْ إِلَى لِزْقِ بَعْضٍ. [لسان العرب: ٩/١١٩].

وللنرجس النضر أصفرار تخاله
يدب إليك الحسن في جنباتها
وللباسمين الغض في خضر بسطها
وللسوسن المبيض إصغاء ألف
وقد كللت أغصان نارنجها، فقل
وعطر منها النثر ما يلبل الندى
وللباء في الدولاب إن رمت
تضمن سقى الروض رفهاً يعله
معطرة الأردان يقعم نفعها
سباء، وجرى الماء فيها بحجرة
فدونكها تحتال زهواً ونضرة

ولهم - خلد الله سلطانهم - في طبق مملوء نثار زهر التارنج والخابور، وأكثر هذا التشبيه على البديهة:

بعثها وذكى العرف ألحفا
كأنها الزهر والخابور جزعه
قد راق منظره حسناً للفتق
ورق مخبره عرفاً لمتشق

ولهم - ظاهر الله نعمه لديهم - مما كتبه بين الكريمتين يديهم:

وأيقظ الطل ريباً نائم الزهر
تفتر عن لؤلؤ عذب وعن أثر
كأنها شفق في هالة القمر
زفتها ورواق الليل منسدل

ومن الغازهم؛ وسمعت منهم رضي الله عنهم:

سحرت أعين الجأذر لبي
واستباححت همى فؤادي وقلبي

[....] منها أشتباه فانظرن التصحيف من بعد قلب

وقد استوفوا حروف المعجم في هذا الباب، فأتوا - أيدهم الله - بما فيه عبرة لأولى

الألباب.

ولهم في الرثاء، أدام الله أيامهم كما جعل مفاتيح الأقاليم سيوفهم وأقلامهم:

وتصبر فإن الصبر أولى بندي حجر	وإن كان حجراً فالملام إلى الحجر
وما زالت الأيام تغدو على الفتى	فطوراً على بشر وطوراً على بسر
وإن سالمته، والظلم منها سجية	فلا بد يوماً أن تغر وأن تغري
مري الحزن دمعي أن أمر حباله	وكان قديماً لا يمر ولا يمري
وعهدي بهذا الدمع يا عين وافيأ	فهل لك في الغدر المبرح من عذر؟
ألا من لعين لا ينهنه غربها	ألا من لسحر لا يمل من السحر؟
ألا تلك شمس الجوف في الدو فأعجبوا	ألا تلكم إدمانة العفو في القفر
أأسلو وهذا شخصها حشو مقلتي	وأنسى وما تنفك مني على ذكر؟
لئن ضم منك اللحد ذاتاً زكية	لقد حنيت مني الضلوع على جهر
سأبكيك ما أنت فقيدة بكرها	وحنيت إلى وكر مطوقة النحر
أطارحها شجوي فيسعد شجوها	فتحسبنا إلفي مصاب لدى وكر
ومالي وما للعيد لولا تحفل	يكلفني ما لا أطيق من الصبر
فمن كان ذا هدى وهدى لعيده	فعندي هدى من مدامعي الحمر
يغادونها قربي لنحر ثلاثة	ودمعي من تسكابه الدهر في بحر
وعندي ولا رد زفير مردد	تهد لظاه جانب البشر
وتصديق إيمان وإقرار موقن	وتسليم مربوب لدى الخلق والأمر

ومن تصنيف لهم في الزهد جليل، هو على أنفرادهم في الكمال وسحر الكلام أوضح

دليل:

يعجل الإنسان بالشيء، وهل خلق الإنسان إلا من عجل؟
ولذى العدل قضاء في الورى يتقاضاه كتاب وأجل
إن ظفر الليث يدمي من ردى مثل خد الخود^(١) يدمى من خجل
وأخو الغفلسة في غفلته إن بكت ورقاء غنى وأرتجل

وإنما أورد منه الفرائد، وأقصد إليه من القصائد، وها هي تضيق عنها المهارق، وتضىء منها المغارب والمشارق، وإنما هذا إلماع بما أعوز العلماء، وإسماح لما أسكت الحكماء.

ولما ظفرت من هذا المقصود الأحمد، وسبقت إليه سبق الجواد إذا استولى على الأمد، قصرته على ملوك إفريقية وبلاد المغرب المضافة إليها، وقدمت القادمين في المائة الأولى من السلف الأول عليها، لأنها من أوائل فتوح الإسلام، ثم من منازل بدر التمام مولانا الخليفة الإمام، أدام الله لهم نصر الأولوية والأعلام.

وفي المائة الثانية صارت الأندلس دار إيمان، فواليت ذكر ولائها من ذلك الزمان، ليوقف على جلالة شأنهم، ويعرف تمكن محلهم من البلاغة ومكانهم، وذكرت أبناءهم، واختصرت أبناءهم، هربا من التطويل، ورهبا للتثقال، إلا نكتأ لها بانتخابها أحسن المواقع وعيوناً هي باقتضابها أجول في المحافل وأولج في المسامع. وربما عرض ما يدعو إلى البسط فانتقض حكم هذا الشرط، ولا غرو أن أواقع المحذور، فللكلام اضطراب يبيح المحظور.

وأبرزته مسوقاً على الحقب، منسوقاً بحسب الرتب؛ أعين للصدور صدر كل مائة، وأبين من تميز في جماعة أو تميز إلى فئة، ليستوفي المتأدين، حتى من المتوثبين.

والذين ما عثرت على أشعارهم، أفردت باباً لأخبارهم، ولم أعرض لمن أعرضت عنهم الدولة الحفصية بالخلعان، وانتزعت ما كان بأيديهم تراثاً لها من الملك والسلطان.

(١) الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر تصفاً؛ وقيل: الجارية الناعمة، والجمع تحودات وخود، بضم الخاء، مثل رمح لذن ورماح لذن ولا فعل له. [لسان العرب: ٣/١٦٥].

٥٢..... الحُلة السَّيراءِ في أشعارِ الأُمراءِ

ثم الاسم الذي من خصائصه التأمين والتأخير وأشبهه النضير والمشعر النمير حضرة مولانا الأمير الأسعد الأطهر الأرضي أبو يحيى ولي عهد المؤمنين، وعهد الولي في متابعات السنين، والملي وقد مكارم الأبناء بإنجاب كرام البنين.

أجهد في الاستظهار على شكر نعمته، وأجهر آناء الليل وأطراف النهار بأن يكون العمل خادماً للنية في خدمته. وأقصى المأمول أن تأذن له سيادته في القرب من سدته، وتقابل وفادته بالقبول ليسعد مداه بسعادة مدته. أبقاه الله ولوآؤه منصور، وكرم الخلال فيه محصور، وشرف الكمال عليه مقصور، والعيون والقلوب إليه ميل وصور، بمنه.